

فأعظم أسباب شرح الصدر: التوحيد وعلى حسب كماله، وقوته، وزيادته يكونُ انشراحُ صدرِ صاحبه . قال الله تعالى: (أفمن شرح الله صدره لي ليس لام فيه وعلَى نور من ربه) [الزمر: 22]. وقال تعالى: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره لي ليس لام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) [الأنعام: 125].

فالمهذب والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والمشرك والضال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجِه، ومنها: النور المذبذبة في قلب العبد، وهو نور الإيمان، فإنه يشرح الصدر ويوسعه، ويفرح القلب . فإذا فقد هذا النور من قلب العبد، ضاق وحرج، وصار في ضيق سجن وأصعبه .

وقد روى الترمذي في جامعه عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: ((إذا دخل النور القلب، انفسح وانشرح)). قالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: ((الإنابة إلى دار الخلود، والتجاض عن دار الخروب، والماس ترداداً للموت قبل نزوله)). في صيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور، وكذلك النور الحسي، والمظلمة الحسية، هذه تشرح الصدر، وهذه تضيقه .

ومنها: العلم، فإنه يشرح الصدر، ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحصر والمحيس، فكلما اتسع علم العبد، انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علم، بل للعلم الموروث عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو العلم النافع، فأهلُه أشرح الناس صدراً، وأوسعهم قلوباً، وأحسنهم أخلاقاً، وأطيبهم عيشاً .

ومنها: الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، ومحبتُه بكل القلب، والإقبال عليه، والتنعم بعبادته، فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك . حتى إنه ليقول أحياناً: إن كنت في الجنة في مثل هذه الحالة، فإني إذا في عيش طيب . وللمحبة تأثير عجيب في انشراح الصدر، وطيب النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا من له حس به، وكل ما كانت المحبة أقوى وأشد، كان الصدر أفسح وأشرح، ولما يضيّق إلا عند رؤية الباطلين الفارغين من هذا الشأن، فرؤيتهم قذى عينه، ومخالطتهم حمى روحه .

ومن أعظم أسباب ضيق الصدر: الإعراض عن الله تعالى، وتعلق القلب بغيره، والغفلة عن ذكره، ومحبة سواه، فإن من أحب شيئاً غير الله عذب به، وسجن قلبه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقى منه، ولما أكسف بالمال، ولما أنكد عيشاً، ولما أتعب قلباً، فهما محبتان: محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس، ولذة القلب، ونعيم الروح، وغداؤها، ودواؤها، بل حياتها وقررة عينها، وهي محبة الله وحده بكل القلب، وانجذاب قوى الميل، والإرادة، والمحبة كلها إليه .

ومحبة هي عذاب الروح، وغم النفس، وسجن القلب، وضيق الصدر، وهي سبب الألم والنكد والمعناء، وهي محبة ما سواه سبحانه . ومن أسباب شرح الصدر دواؤه ذكره على كمال حال، وفي كمال موطن، فلذلك تأثير عجيب في انشراح الصدر، ونعيم القلب، ولغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه .

ومنها: الإحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال، والمجاهة، والنفع بالبدن، وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدراً، وأطيبهم نفساً، وأنعمهم قلباً، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدراً، وأنكدهم عيشاً، وأعظمهم همًا وغمًا . وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصحيح مثلاً للبخيل والمتصدق، كمثال رجلين عليهما من حديد، كمالهما المبتدق بصدق، اتسع قلبه وان بسطت، حتى يجر ثيابيه ويغشى أنثراه، ولكل ما هم البخيل بالصدق، لزمت كل حلقة مكانها، ولم تتسع عليه . فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق، وانفساح قلبه، ومثل ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه .

ومنها: المشجاعة، فإن الشجاع منشرح الصدر، واسع البطان، متسع القلب، والجبان أضيق الناس صدراً، وأحصرهم قلباً، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذة له، ولا نعيم إلا من جنس ما للحيوان البهيمي، وأما سرور الروح، ولذتها، ونعيمها، وابتهاجها، فمحرم على كل جبان، كما هو محرم على كل بخيل، وعلى كمال معرض عن الله سبحانه، غافل عن ذكره، جاهل به وبأسمائه تعالى وصفاته، ودينه، متعلق القلب بغيره . وإن هذا النعيم والسرور، يصير في القبر رياضاً وجنة، وذلك الضيق والحصر، ينقلب في القبر عذاباً وسجنًا . فحال العبد في القبر . كحال القلب في الصدر، نعيماً وهذاباً وسجنًا وانطلاقاً، ولما عبرة بانشراح صدر هذا لعارض، ولما بضيق صدر هذا لعارض، فإن العوارض تزول بزوال أسبابها، وإنما المعول على الصفة التي قامت بالقلب وتوجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان .. والله المستعان .

ومنها: بل من أعظمها: إخراج دغَل القلب من الصفات المذمومة التي توجب ضيقه وعذابه، وتحول بينه وبين حصول البرء،

فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره، ولم يُخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه، لم يحظ من انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتوران على قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما .

□ □ □ □ □ □ ومنها: ترك فضول النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطة، والأكل، والنوم، فإن هذه الفضول تستحيل ألباناً وغموماً، وهموماً في القلب، تحصره، وتحبسّه، وتضيقه، ويتعذب بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها، فلا إله إلا الله ما أضيّق صدر من ضرب في كل آفة من هذه الآفات بسهم، وما أنكد عيشه، وما أسوأ حاله، وما أشد حصر قلبه، ولما إله إلا الله، ما أنعم عيش من ضرب في كل خصلة من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همته دائرةً عليها، حائمةً حولها، فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى: {إن الأبرار لفي نعيم} [الانفطار: 13] ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى: {وإن الفجار لفي جحيم} [الانفطار: 14] وبينهما مراتب متفاوتة لا يُحصيها إلا الله تبارك وتعالى .

□ □ □ □ □ □ والمقصود: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أكمل الخلق في كل صفة يحصل بها انشراح الصدر، وإتساع القلب، وقرّة العين، وحياة الروح، فهو أكمل الخلق في هذا المشرح والحياة، وقرّة العين مع ما خص به من المشرح المحسّي، وأكمل الخلق متابعة له، أكملهم انشراحاً ولذة وقرّة عين، وعلى حسب متابعتهم ينال العبد من انشراح صدره وقرّة عينه، ولذة روحه ما ينال، فهو صلى الله عليه وسلم في ذروة الكمال من شرح الصدر، ورفع الذكر، ووضع الوزر، ولاتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتباعه .. والله المستعان .

□ □ □ □ □ □ وهكذا لاتباعه نصيب من حفظ الله لهم، وعصمتهم إياهم، ودفاعه عنهم، وإعزازه لهم، ونصره لهم، بحسب نصيبهم من المتابعة، فمستقل ومستكثر، فمن وجد خيراً، فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه.